ركضٌ في متاهة

مصطفى النفيسي ❖

ركض في كلّ بقاع قريته الصغيرة. سطا على كلّ الإجّاص الذي كان يرفض أن ينضج، كأيّ حمارٍ حرون، في بستان حمدون ابن التهامي، حيث كان يقف هو وأترابه تحت تلك الأشجار الباسقة التي تنغرس قرب الساقية النتنة، متسائلاً عن سبب كون إجّاص حمدون أصغر من الذي يشتريه أبوه من متجر «موحى» الفاكهاني.

ركض في كلّ الأمكنة تقريبًا. في البيادر المتربة في أواخر الصيف جاريًا وراء الكُرات التي كان يصنعها من الأسمال البالية والأكياس البلاستيكيّة، فوق الأكمة الشبيهة برأس رجل. ركض في الحقول البعيدة، رافسًا أعشاشَ العصافير الصغيرة العمشاء التي كان الناسُ في قريته يدعونها «العميش.» وكثيرًا ما استوقفته هذه التسمية الغريبة: فهي تطير بشكل سليم، لكنْ بطيء، فيسهل القبضُ عليها متى أراد.

ركض في البقاع المتاخمة للنهر الذي تأتي مياهُه من أقاصي الجبال البعيدة، حيث تتكدّس الثلوجُ التي كانت تحيّره، فيظل يراقبها وقتًا ليس بالهيّن، قبل أن يعود إلى الركض فوق الحشائش في تلك المروج الخضراء، أسفلَ تلّ عين سدرة، ثم ينحدر في ركضٍ جارفٍ إلى منزله

ركض في كلّ الأمكنة تقريبًا، قبل أن ينتقل أبوه إلى منزل قديم في عمق المدينة العتيقة. واستمرّ ركضُه في الأزقّة والحارات. يمرّ بساحة بوجلود، والطالعة الصّغيرة، وضريح مولاي إدريس، ولا يتوقّف إلاّ قرب مسجد الرصيف، لينطلق من جديد.

إنّه لا يتوقّف. لا يريد أن يتوقّف.

يريد أن يركض فقط. يركض. يركض في كلّ اتّجاه.

كان يرى نفسه، في كوابيسه المخيفة، يركض خائفًا من ثعابينَ طويلةٍ برؤوس ضخمة، وبفحيحٍ يسبقها وهي تزحف من ورائه، وهو يركض ويستغيث بأقربائه، فلا ينقذه سوى الصراخ، فيستيقظ كالملدوغ، والعرقُ يتصبّب من جسده.

يركض هربًا من لصوص يفاجئونه جالسًا في غرفته الصغيرة يطالع روايات جرجي زيدان وأجاثا كريستي. فيحاول الخروجَ إلى الشارع راكضًا، فلا تسعفه قدماه، ويحسّ كأنهما التصقتا الواحدةُ بالأخرى أو سُمّرتا بمسامير حديديّة على بلاط الغرفة.

يركض هربًا من كلاب شرسة لا ترحم فزعَه الطفوليّ، ولا طراوةَ جسده، فيحسّ أنّ جسده يزن القناطرَ المقنطرة فلا يسعفه في التحرّك، بل إنه لا يستطيع التزحزحَ من مكانه، فيصرخ. لا يملك إلا أن يصرخ. يصرخ بكلّ ما أوتيتْ حبالُه الصوتيّةُ المجهدةُ من قوة. يصرخ كأنه مهرٌ افتقد أمّه في حقل برسيم.

صرخ في سنوات الوحدة حيث لم يكن يجد مَنْ يوقظه، فلا يجد أمامه سوى أمتعته وقد تحوّلتْ كتلاً سوداءَ تتكدّس من حوله. والآن ترتعد زوجتُه خوفًا حين تسمع أنينَه الليليّ، فلا تتوانى عن الصراخ هي الأخرى، قبل أن تضع يدَها على فمها كأنها ارتكبتْ خطبًا ما.

ركض في المدرسة وراء شواهدَ دراسيّة حوّلتْ جسدَه إلى جذع شجرة أوكاليبتوس جعلته يتحمّل أسئلةً قاسيةً وسمجةً عن سبب نحافته. وكانت أمّه تجيب نيابةً عنه قائلة: «القراية.. القراية.. قضت عليه!»

ركض خلف فتياتٍ كثيرات: منهنّ مَنْ خضعن بسرعةٍ لنزواته؛ ومنهنّ مَنْ صادقنه مدّةً قبل أن يسقطن في أحابيله؛ ومنهنّ مَن انسللن مِن حياته كمساميرَ صغيرةٍ تنفلت من أحذية قديمة، فخلّفن فتحاتٍ صغيرة في جسده؛ ومنهنّ مَنْ بقين بعيداتٍ لا يصل إليهنّ إلا في أحلامه الورديّة.

ركض من جديد في كلّ زوايا الحياة، تسبقه زفراتُه، ودقّاتُ قلبه، وارتباكُه الذريع. كأنّه سجين تتغيّر إقامتُه السجنيّةُ باستمرار، ولا يجد لذلك سببًا سوى أنّه مجبر من جديد على الركض. الركض في كلّ الاتجاهات. الركض كأرانب أخافتها ذئابٌ لئيمة. الركض من دون توقّف كما تفعل الرياحُ واللقالق. الركض في كلّ أيّام الأسبوع. الركض تحت كلّ ألوان السماء: الأزرق، البنّيّ، الرماديّ، الأسود، الأحمر...

يركض باستمرار مثلما كان يفعل حينما كان يباغته حمدون ابن التهامي في قريته، وهو يسطو على الإجّاص الضئيل الذي أثمرتْه أشجاره الواقفةُ كجنودٍ خائفين قرب ساقية الماء النتنة.

يركض. يركض فقط.

فاس

❖ ـ كاتب من المغرب.